نظريات التصميم الحضري

المرحلة الرابعة

المحاضرة الخامسة

البيئة العمرانية

م. د. مياده لطفي عبد الوهاب

مفهوم البيئة العمرانية The Urban Environment

يستمد مفهوم البيئة العمرانية تعريفه من مفهوم (العمران) والذي يصف محاولات الإنسان في تسخير مكونات الطبيعة لتحقيق مصالح المجتمع ، وهو مرتبط بمفهوم المدينة ونتاجاتها ، ويمثل مفهوم البيئة الفيزياوية (Physical environment) مرادفا لمفهوم البيئة العمرانية مع اختلاف التسمية ، كون البيئة الفيزيائية تمثل مكونات الطبيعة ومجالاً لوجود الإنسان على الأرض.

وتشكل البيئة العمرانية جزءا من البيئة الجغرافية (المادية) والحضارية (المعنوية) ، فهي تتشكل من مجموعة من التغيرات والتحويرات التي يدخلها البشر على بيئاتهم الطبيعية والحضارية ، فطريقة تجميعهم للمستويات والفضاءات تؤثر على طبيعة علاقاتهم بالبيئة الجغرافية ، **لأنها تغير من حالة الإضاءة والراحة والحرارة والصوت وعوامل أخرى موجودة في البيئة الجغرافي الطبيعية ، وهي في نفس الوقت تنتج من تغيرات اجتماعية وحضارية وتؤثر على طبيعة التفاعل بين الناس .**

وتقسم البيئة إلى قسمين رئيسين هما :

1. البيئة الطبيعية Natural environment :

وهي كل ما يحيط بالإنسان من معطيات ليس له دخل في وجودها والتي تختلف من منطقة إلى أخرى تبعا للمعطيات المكونة لها ، وتشمل كل البيئة الحية وغير الحية التي تحيط بالإنسان كالموارد الطبيعية الفيزياوية ومؤثرات المناخ و طبوغرافية الأرض .

2. البيئة المصنعة Man-made environment :

ويقصد بها النتاجات الصناعية والمادية (الفيزياوية) التي تقوم على تكييف القوانين الطبيعية لخدمة غايات الإنسان وتحقيق أهدافـــه وكذلك تعمل على تحقيق الحماية وألامان وإقامة العلاقات الاجتماعية التي أوحت للبشر الاجتماع في مجتمعات إنسانية متميزة.

إن كل من القسمين الرئيسيين التي تتألف منهما البيئة تمثلان مجالا يحدث فيه الإثارة والتفاعل بينها وبين الإنسان ، تؤثران فيه ويؤثر فيهما هو كذلك ، فالعلاقة التي تجمع الإنسان بالبيئة ـ بنوعيها ـ هي تعبير صريح عن علاقة الجزء بالكل ، حيث يتفاعلان معا في تكامل وتجانس من اجل الحفاظ على النسق أو النظام العام الذي بدوره يحفظهما في توازن وتناغم يتم من خلاله صنع الحضارة المتميزة التي تنتمي إلى البيئة التي أنتجت فيها (الطبيعية كانت أو العمرانية) .

ويمكن أضافة نوع ثالث **هو البيئة المحلية (Local Environment)** ويقصد بها **المحيط المادي والمعنوي** الذي يتحسس به الانسان للتعرف على التفاصيل التي لعبت دوراً في بناء تكويناتها

حيث يتمثل المحيط المادي : بالكتل البنائية وتفاصيلها المعمارية ومحتوى الواجهات والتنظيم العمراني للفضاءات كالساحات والاشجار والإنارة ...الخ. والتي يتحسسها الإنسان ويتفاعل معها من خلال انطباعية عضوية ووظيفية .

ويتمثل المحيط المعنوي : بالصورة الحسية للشكل التكويني لذلك الفضاء الحضري الذي يتحسسه الانسان من خلال انطباعية روحية ، عاطفية متاثرا بالطبيعة وتفاعله الاجتماعي .

مكونات البيئة العمرانية من الناحية المعنوية :

البيئة العمرانية تنظيم ينطوي بصورة حركية ديناميكية على ثلاث مكونات رئيسية وهي (الإنسان وأبعاد المكان والزمان) اللذان يؤلفان نظم مكانية وزمانية يتم التوصل إليها من خلال تفاعل الإنسان مع البيئة ضمن منظومة يتكامل فيها الوجود الإنساني ومحيطه المتمثلة بالبيئة العمرانية ومحتوياتها في بنية واحدة . فالبيئة العمرانية تتألف من ثلاث مكونات أساسية ، وهي :

- **الإنسان**
- **المكان**
- **الزمان**

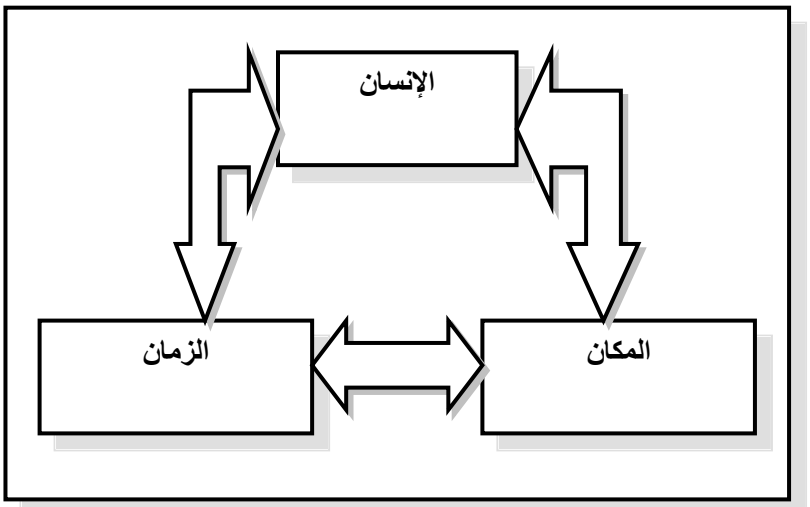

الشكل يوضح العلاقة المتبادلة بين مكونات البيئة العمرانية

فالعلاقة المتشابكة بين الإنسان والمكان والزمان إنما هي علاقة حية تعبر عن معاني الحياة والفكر وتعمق التجربة الإنسانية ومؤثراتها في الوجود ، وان أي تواصل بين هذه المكونات مع بعضها البعض يؤلف شرطا أساسيا لتحقيق الوجود الإنساني وأساس التوطين له ضمن البيئة التي يعيش فيها ، وبالعكس فان أي انقطاع أو انفصال بين هذه المكونات يؤدي إلى ظاهرة الاغتراب عند الإنسان في بيئته.

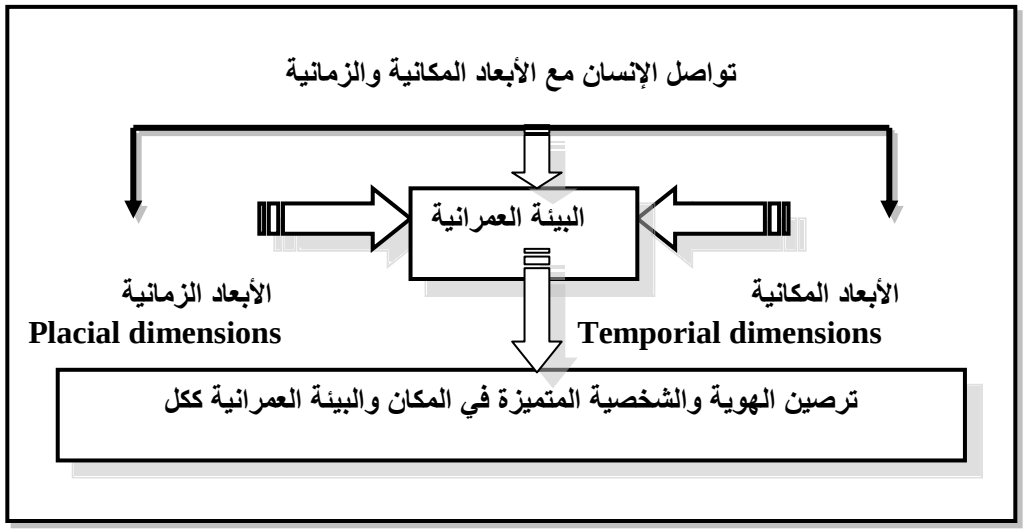

الشكل يوضح مكونات ابعاد البيئة العمرانية

1- الإنسان Human :

تعد العلاقة بين الإنسان والبيئة العمرانية علاقة أزلية منذ الخليقة ، فالإنسان يولد ضمن بيئة معينة ، يعيش فيها ، يتحرك فيها ، يأكل فيها ، ولا يمكن إن نفكر بالإنسان منعزلا عن البيئة ، ونتيجة لهذه العلاقة نجد بان هناك عملية تواصل وتفاعل بين الإنسان ومحيطه يتحول فيها الطرفان من مؤثر إلى متأثر .

وتمثل البيئة العمرانية مجالا لتفاعل الإنسان مع الآخرين ومع الأشياء ، يمارس فيها فعالياته و نشاطاته الاجتماعية المختلفة وبالتالي تحقيق متطلباته النفسية والروحية والاجتماعية ، فالبيئة العمرانية تعُد المكان الرئيس الذي يتحقق فيه الوجود الفعلي للإنسان . وقد اتخذت العلاقة بين الإنسان والبيئة المحيطة به اتجاهين رئيسيين وهما.

الأول : إن الإنسان موضوع (Object) فيزياوي تحدد أفعاله وسلوكه قوانين الكون والطبيعة ، وهو جزء متكامل مع المجاورات كالبيئة العمرانية .

الثاني : إن الإنسان ذاتي (Subjective) يقف خارج المجاورات ، يشاهد ويسلك سلوكيات تنبعث من دوافعه ورغباته الشخصية .

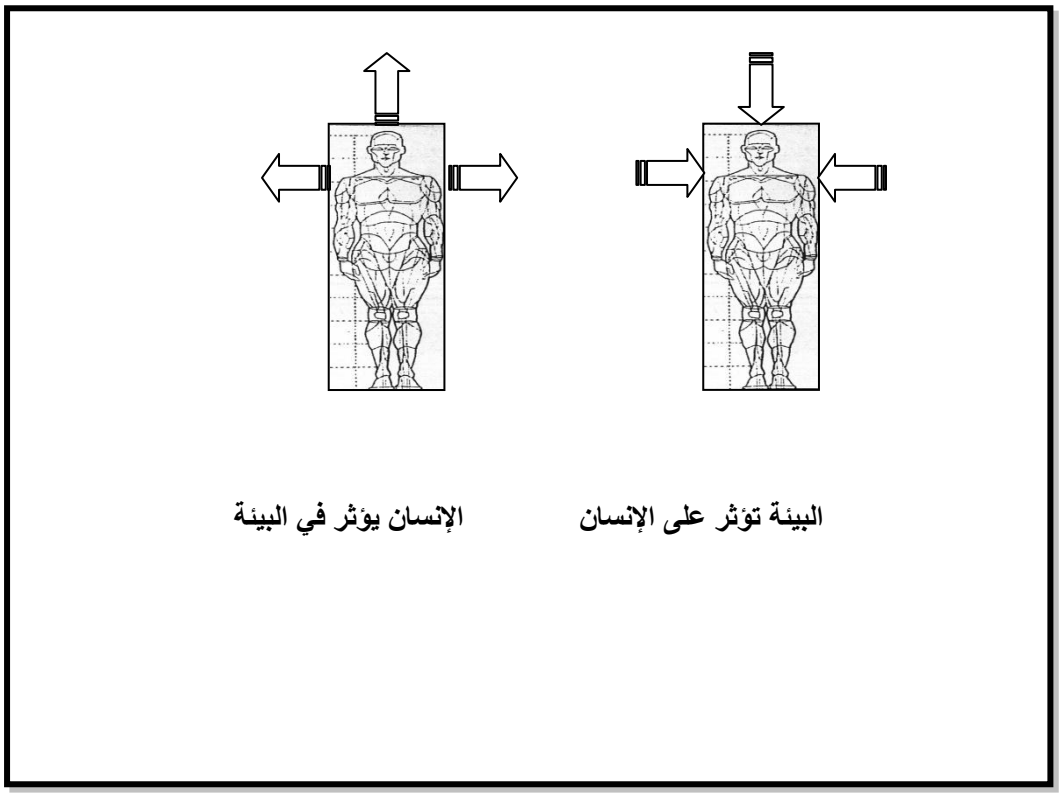

الشكل يوضح العلاقة بين الإنسان والبيئة

ان هدف العمارة والعمران وهو التنظيم المكاني – الزماني للمنشات والفعاليات الانسانية ، اي ان الانسان عندما يتدخل في انشاء وتحوير المكان وتكييفه لخدمته فانه ينتج عمارة ، اي انها كالعلاقة الثلاثية ، لذلك تكون علاقة المكان بالعمارة والعمران هي بسبب الانسان الذي صاغ في المكان الصياغة العمرانية ، اي العناصر والملامح التفصيلية المميزة والمرتبطة باقترانات حسية ورمزية معينة .

2- المكـان Place :

المكان هو المسرح الطبيعي الجغرافي الذي يتعامل معه ويختلف الإنسان باختلافه ويتشابه بتشـابهه، والمكان ليس موقعاً مجرداً وانما هو كيان مادي مكتنز بالمعاني الظاهرة والكامنة ، فلا يمكن الحكم على مكان من خلال شكله الخارجي او حدودة المرئية فقط لانه حكم ظاهري ويفتقر للحكمة لانه المعطى المادى او الشكلي يرتبط بالمعنى المعنوي للمكان ، حيث ان البعد المادي يبحث بالشواخص والابنية ومحاورها البصرية والحركية والعلاقات التناسبية والنواحي الانشائية اي النواحي العمرانية للمكان ، **اي بالوجود المادي لذلك المكان** .

في حين تبحث الابعاد المعنوية والرمزية للمكان بالخلفية التاريخية والاحداث والمعاني الكامنة وراء تلك الابنية والشواخص . أذ أن الخصائص النوعية والمعنوية للمكان ما هي الا المضمون القيمي والنوعي لبيئته المادية وهي تتعلق بالفرد وتفكيره وعلى العامل الاجتماعي والمعنوي والروحي والجمالي وعلى أفضل مستوى قيمي ممكن .

اي انها ترتبط بالقيم المعنوية المرتبطة بالفرد وذاكرته ، وتتعلق بمفهوم الادراك التصديقي الخاضع للتفكير والتفاعل مع المكان ومكوناته، بذلك فالمعطيات المعنوية للمكان هي تمثل مفاهيم فكرية للشكل الفيزياوي وتخضع لتغيير هذا المفهوم بنوعيه الادراكي الذهني والتلقائي للانسان ، فيدرك الانسان المكان دلالة وفكراً فضلا عن ادراكه مادة وشكلاً فيزياوياً اي بعداً مادياً .

وهناك عوامل تحدد شخصية المكان تشمل : -

1. الحدود الجانبية للفضاء وطبيعتها كالجدران المحيطة اوالواجهات .
2. الكتل تناسب بين ارتفاعات الكتل البنائية واتساع الفضاء الذي يؤثر في القوة الاحتوائية للفضاءات ومقياسها الانساني .
3. اختلاف خط السماء ومستويات الارض .
4. طبيعة الفعاليات في المكان بما يؤثر في سلوك الانسان .
5. العناصر المكملة للفضاء كالنصب والتماثيل والاشجار ... الخ .

إذ إن تحسس المكان إنما يكون نتيجة العلاقة بين الناظر وهذه العناصر. ذلك إن الناظر هو الكائن الذي يشغل المكان ، ويمكن ان تمتلك الاماكن خصائص كلية عندما تتخذ الاحداث لها مكان فيه ، وعندما ترتبط المكونات المختلفة الواحدة بالاخرى بهدف كلي Gestalt ، وعندما يكتشف الكل كونه اكثر من الاجزاء المكونة لها ،

وفي ضوء ذلك يتكيف المكان كظاهرة كلية ، ولاتوجد امكانية التقليل من اية خاصية من خصائصه، دون ان تفقد شيئا من طبيعتها الثابتة .

ان التاكيد على اهمية المكان في تحقيق ديمومة العمران القائم فيه وكيفية تفعيل معطيات المكان واستثمارها على مستوى النسيج الحضري هي تقوم على اساس تكامل المنظومتين المادية والمعنوية اللتين تشكلان بمجملهما (معطيات المكان) .

فبينما انماط الفضاء ممكن تصنيفها الى مجاميع مستندة الى الخصائص الفيزيائية في حين كل مكان له خصائصه الفريدة المميزة التي يتسنبطها من المحيط ، بحيث يكتسي بهيئة وشخصية المجاورات الموقعية ، وان هذه الشخصية او الهيئة لذلك المكان تشتمل على كلا العناصر الملموسة المحتوية على قوام مادي محسوس (كالشكل والملمس واللون ودرجة الاحاطة... الخ) والعناصر غير المحسوسة والمتمثلة بالعناصر الثقافية والاجتماعية والتاريخية والتي يكتسبها ذلك المكان بواسطة الاستعمال الانساني على مر الزمن.

3) الزمـان Time:

ان الفرق بين الماضي والمستقبل دقيق للغاية فالفعل الحاضر يتمتع بالديمومة ومن ثم لا يلبث أن ينقلب إلى (المستقبل) ليصبح جزءً منه (ماضيا) فالزمن عنصر سيال لا يثبت على حال ولا يجمد عند ظرف . ولا يمكن لأي كينونة إن تحدث دون وجود وعاء زماني وأخر مكاني يحويها ، فالعمران هو فن الزمن (Art of time)

، وعلاقة العمران بالزمن ليست علاقة ساكنة (Constant) بل هي علاقة حركية ديناميكية . فالزمان ليس ظاهرة ، وإنما نسق للتغيير والتتابع الظاهراتي ، وهذا التغيير ما هو إلا إشارة إلى الحركة والديناميكية .

إن تأثير الزمن على البيئة العمرانية يمكن إن يفهم بطريقتين) وهما :

- **مفهوم حضور الزمن الماضي والحاضر والمستقبل** : وتشير إلى البناء المعرفي للزمن بالمقياس الواسع كمجرى خطي مقابل الزمن الدائري ، التوجه نحو المستقبل مقابل التوجه نحو الماضي .

- **مفهوم الحدث والفعاليات التي تجري في الفضاء** : وتشير إلى معدل حركة الفعاليات (الوظائف) وإيقاعها الإنساني داخل البيئة العمرانية والتنظيم الفضائي ، ومدى تناغمها مع بعضها البعض أو عدمه .

وللزمن أبعاده التي تتجلى أو تتجسد في الكيان المادي للبيئة العمرانية والتي تشكل الاستمرارية والتواصل مع الماضي أو الوجود الحي في الحاضر أو التطلع إلى المستقبل ، في إيجاد رموز التغير والتحديث . فليس ثمة عمل من اعمال العمارة والعمران يمكن ان يختبر دون الزمن اللازم لكشفه فالاضافة الجديدة ترتبط ارتباطا وثيقا غير ان ربطه بما يليه او بما يسبقه من زمن لا بد ان يثير في الذهن صوراً تتباين مع مشهد اللحظة المتميزة .

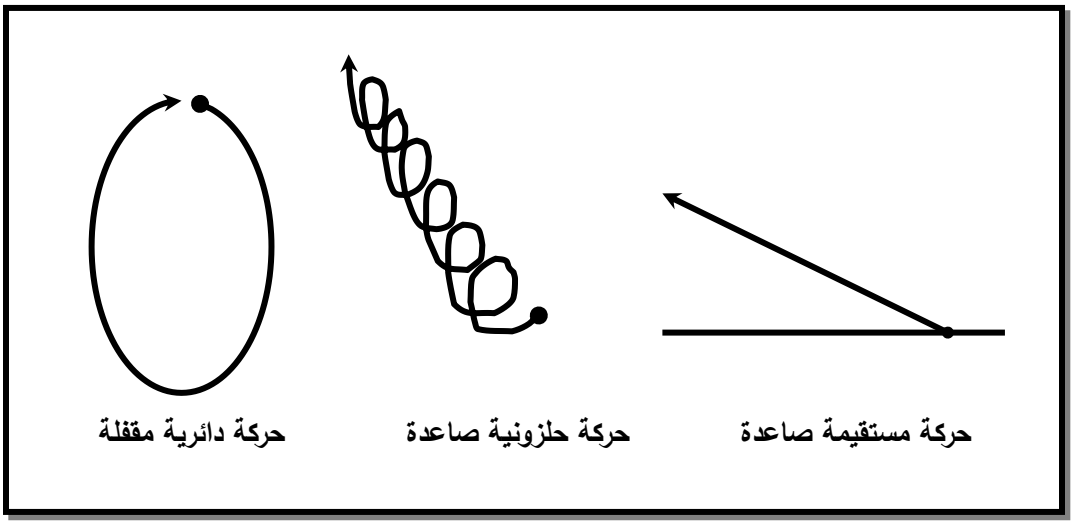

شكل توضح توجهات مختلفة في النظرة إلى حركة الزمن

من ملاحظة المكونات الثلاثة للبيئة العمرانية نلاحظ ترابط هذه المكونات فلا يمكن ان نفصل إحداها عن الأخرى ، فـ(الإنسان) وحده لا يكفي و(المكان) بدون عمران الإنسان لا يعني شيء وكذلك المكوث في (الزمان) يعني الالتصاق بالتاريخ والتراث وعدم التطور. فلكل من العوامل الثلاث تأثيره ولا يمكن أن نجرد إحداهما او نكتفي بأحدهم. والكل لديه سيان .